التوحيد

جوهر الحضارة الإسلامية



إسماعيل راجي الفاروقي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

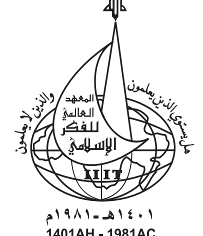
التوحيد

جوهر الحضارة الإسلامية

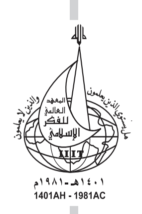
التوحيد

جوهر الحضارة الإسلامية

إسماعيل راجي الفاروقي



١٤٠١هـ-١٩٨١م
1401AH - 1981AC
المعهد العالمي للفكر الإسلامي



الطبعة الأولى 1436هـ / 2015م

التوحيد: جوهر الحضارة الإسلامية

تأليف: إسماعيل راجي الفاروقي

هذا الكراس وهو الفصل الرابع، مستلٌ من كتاب "أطلس الحضارة الإسلامية" والذي صدر باللغة الإنكليزية عن دار ماكميلان للنشر عام 1986، وترجم ونشر باللغة العربية وصدر عن مكتبة العبيكان والمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

موضوع الكتاب 1- **التوحيد** 2- **الحضارة الإسلامية**

3- **الفكر الإسلامي** 4- **فلسفة الجمال والأخلاق**

ردمك (ISBN): 978-1-56564-553-0

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought

P.O.Box: 669، Herndon، VA 20172 - USA

Tel: (1-703) 471 1133، Fax: (1-703) 471 3922

www.iiit.org / iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان

ص.ب 9489 الرمز البريدي 11191

هاتف: 4611421 6 962+ فاكس: 4611420 6 962+

www.iiitjordan.org

مكتب التوزيع في العالم العربي

بيروت - لبنان

هاتف: 009611707361 - فاكس: 009611311183

www.eiiit.org / info@eiiit.org


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة

لا شكَّ في أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام، وأن جوهر الإسلام هو التوحيد؛ أي الإيمان العميق الخالص أنه الله هو الخالق الواحد المطلق المتعال، ورب الكائنات جميعاً وسيّدها.

هذان المبدآن الأساسيّان باديا الوضوح، ولم يتطرّق الشكّ بهما قط إلى من كان ينتمي إلى هذه الحضارة أو ساهم فيها. ولم يتعرّضا للشك إلا عند الحركات التنصيرية أو المستشرقين وغيرهم ممن فسّر الإسلام في الماضي القريب. والمسلمون، مهما يكن مستوى ثقافتهم، هم على ثقة مطلقة بأن الحضارة الإسلامية تنطوي على جوهر، وأن هذا الجوهر قابل للمعرفة والتحليل والوصف، وذلك هو التوحيد.[١] وتحليل التوحيد بوصفه جوهراً ومبدأً رئيساً في الحضارة الإسلاميّة هو موضوع هذه الكُرّاسة.

والتوحيد هو ذلك المبدأ الذي يمنح الحضارة الإسلامية هويتها، ويربط جميع مكوّناتها معاً ليجعل منها كياناً عضوياً متكاملاً نُسمّيه حضارة. وفي ربط العناصر المتفرّقة معاً، يقوم جوهر الحضارة

---

(١) ينظر ردي على المستشرقين الذين يثيرون الشكوك حول احتواء الإسلام على جوهر، أو أن هذا الجوهر معروف أو يمكن معرفته، وذلك في مقال بعنوان [جوهر المعرفة الدينية في الإسلام]

- The Essence of Religious Experience in Islam, Numen, 20 (1973), pp. 186–201.

-وهو التوحيد في هذه الحال- بطبع تلك العناصر بطابعه الخاص، ثم يعيد تكوينها بشكل يتناسق مع العناصر الأخرى ويدعمها. ولا يقوم الجوهر ضرورة بتغيير طبيعة تلك العناصر، بل يحوّلها ليصنع منها حضارة ويعطيها صفاتها الجديدة التي تُكوّن تلك الحضارة. ويختلف مدى التحوّل بين ضئيل وجذري، اعتماداً على مدى علاقة الجوهر بالعناصر المختلفة ووظائفها. وقد برزت هذه العلاقة في أذهان المسلمين الذين كانوا يتابعون ظواهر الحضارة، لذلك اتخذوا التوحيد عنواناً لأهمّ أبحاثهم، وأدخَلوا جميع الموضوعات الأخرى تحت لوائه. وقد عدّوا التوحيد أهم المبادئ الأساسية التي تضم أو تحكم جميع المبادئ الأخرى؛ كما وجدوا فيه المنبع الرئيس والمصدر البَدْئِي الذي يحكم جميع الظواهر في الحضارة الإسلامية.

والتوحيد بالعبارة البسيطة المتوارثة هو الاعتقاد والشهادة أن "لا إله إلا الله". وهذا القول بصيغة النفي، الموجز أشد الإيجاز، يحمل أعظم المعاني وأغناها في الإسلام قاطبة. وقد تتكثّف في جملة واحدة ثقافة كاملة أو حضارة كاملة أو تاريخ بأجمعه. وهذا بالتأكيد هو نجده في "الكلمة" أو "الشهادة" في الإسلام. فكل ما في الإسلام من تنوّع وغِنىً وتاريخ وثقافة ومعرفة وحكمة وحضارة يجتمع في هذه الجملة البالغة القِصَر "لا إله إلا الله".

التوحيد بوصفه نظرة تُفسِّر العالَم

التوحيد نظرة عامة إلى الواقع والحقيقة والعالم والزمان والمكان والتاريخ البشري. وبهذا المعنى فهو يشمل المبادئ الآتية:

الثنائية

الواقع جنسان منفصلان، الله وغير الله؛ الخالق والمخلوق. في المرتبة الأولى لا يوجد سوى واحد أحد، هو الله المطلق القادر. هو وحده الله، الدائم المتعال، لا شبيهَ له؛ باقٍ إلى الأبد واحدٌ مطلقٌ لا شركاء له ولا أعوان. وفي المرتبة الثانية يوجد المكان - الزمان، والعالَم، والخليقة. وهي تضم جميع المخلوقات وعالم الأشياء والنبات والحيوان والبشر والجنّ والملائكة والسماء والأرض والجنة والنار، وكل ما آلوا إليه منذ جاءوا إلى الوجود. والمرتبتان، من خالق ومخلوق، مختلفتان غاية الاختلاف من حيث طبيعة وجودهما، ومن حيث كونهما ومساراتهما. ومن المستحيل قطعاً أن يتّحد الواحد بالآخر، أو يذوب أو يتداخل أو ينتشر فيه. ولا يمكن للخالق أن يتحوّل وجودياً ليصبح المخلوق، كما لا يمكن للمخلوق أن يتسامى ويتحول ليصبح الخالق، بأي شكل أو معنى.[1]

---

(١) في هذا الصدد يختلف التوحيد عن التصوّف وعن بعض مِلل الهندوسية، حيث تذوب حقيقة العالم في الله، ويصبح الله الحقيقة الوحيدة، والموجود الأوحد. وفي هذه النظرة لا يوجد أي شيء حقاً سوى الله. كل شيء وَهْمٌ، ووجوده =

الإدراكية

العلاقة بين المرتبتين من الواقع إدراكية في طبيعتها. وهي عند الإنسان تتصل بقدرة الفهم. فبوصفه وسيلة المعرفة وكَنَفَها، يشمل الفهم جميع وظائف المعرفة من ذاكرة وتخيّل وتفكير وملاحظة وحدس واستيعاب وما إلى ذلك. وموهبة الفهم موجودة عند جميع البشر. وهذه الموهبة هي من القوة بحيث تفهم إرادة الله بإحدى هاتين الطريقتين أو بكلتيهما: عندما يكون التعبير عنها بكلمات مباشرة من الله إلى الإنسان، أو عندما تتجلّى الإرادة الإلهية من خلال ملاحظة الخليقة.[١]

= غير حقيقي. ويناقض التوحيد كذلك آراء قدامى المصريين والإغريق والتاويين التي تقف على النقيض التام مع آراء الهند. ففي تلك الآراء، يذوب وجود الخالق في المخلوق أو العالَم. وإذا كانت مصر ترى أن الله هو في الحقيقة الفرعون وكذلك نَصْل العشب الأخضر الطالع من الأرض في الربيع، ونهر النيل بمائه وقاعه، وقرص الشمس بحرارته وضيائه، كان التراث الإغريقي – الرومي يرى أن الله هو أي مظهر من مظاهر الطبيعة البشرية أو الشخصية، يتعاظم إلى درجة تضعه فوق الطبيعة بمعنى معيّن، لكنها تُبقيه كامناً في الطبيعة بمعنى آخر. وفي كلتا الحالتين يذوب الخالق مع مخلوقه. وبتأثير من القسيسين فصلت المسيحية نفسها عن التوحيد، عندما أدّعت أن الله جسّد نفسه في جسد المسيح، ونادت بأن المسيح هو الله. وميزة الإسلام الفريدة أنه أكّد على الثنائية المطلقة والاختلاف الكامل بين الله والعالَم، وبين الخالق والمخلوق. وبهذا الموقف الواضح غير المتساهل حول مسألة السُّمُو الإلهي، أصبح الإسلامُ؛ خلاصةُ ميراث النبوّة السامي، يشغل الوسط الذهبي بين مبالغة الشرق (الهند) التي تنكر الطبيعة، ومبالغة الغرب (الإغريق والمصريين) التي تُنكر أن الله هو الآخر.

(١) يشير هذا المبدأ إلى الفصل الوجودي المطلق بين الله والإنسان، وإلى =

الغائية

طبيعة الكون غائيّة، أي إنها ذات غاية، تخدم غاية لخالقها، وتقوم بذلك عن قصد. فلم يُخلق العالمُ عبثاً ولا لِعباً.(١) وهو ليس عمل صدفة عارضة، فقد خُلِق العالم في أكمل صورة. وكل ما هو موجود إنما وجد بقدْر يناسبه ويؤدي غاية كونية معيّنة.(٢)

والعالَم في الحقيقة "كون" أي خليقة منتظمة، لا "فوضى"، وفيه تتحقق إرادة الخالق دوماً، كما تطبّق أنساقَه ضرورة القانون الطبيعي؛ لأن هذه الأنساق موجودة في المنطوى من طبيعة الأشياء ذاتها. وليس من مخلوق غير الإنسان يعمل أو يوجد

= استحالة اتحادهما من خلال التجسُّد أو التأليه أو الذوبان. لكن المبدأ لا ينكر إمكان التواصل بينهما. والواقع أنه لا ينفصل عن النبوّة، أو إيصال الله أمراً للإنسان ينتظر منه أن يطيعه. ولا هو يلغي إمكان التواصل خلال العقل أو الحدس، كما يحدث حين يراقب الإنسان المخلوقات؛ ويتأمل في كيف ولماذا، ويستنتج أن لا بدّ أن يكون لها خالق ومدبّر ورازق يستحق الاهتمام. وهذا هو سبيل الإدراكية أو العقلانية. وفي التحليل الأخير يكون هذا المبدأ من الفصل الوجودي بين الله والعالَم هو الذي يميز التوحيد عن جميع النظريات التي تؤلّه الإنسان أو تؤنسن الله، سواء عند الإغريق أو الرومان أو الهندوس أو البوذيين أو المسيحيين.

(١) كما نقرأ في سورة آل عمران الآية ١٩١؛ سورة المؤمنون الآية ١١٦.

(٢) كما يرد في سورة الأعراف الآية ١٥؛ وسورة يونس الآية ٥؛ وسورة الرعد الآية ٩؛ وسورة الحجر الآية ٢٩؛ وسورة الفرقان الآية ٢؛ وسورة السجدة الآية ٩؛ وسورة ص الآية ٧٢؛ وسورة فصلت الآية ١٠؛ وسورة القمر الآية ٤٩؛ وسورة الطلاق الآية ٣؛ وسورة القيامة الآيتان ٤ و ٣٨؛ وسورة عبس الآية ١٩؛ وسورة الانفطار الآية ٧؛ وسورة الأعلى الآيتان ٢-٣.

بطريقة غير التي قدّرها الله له.[١] والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي تتحقق فيه إرادة الله لا بالضرورة، بل بموافقة الإنسان نفسه. والوظائف الجسدية والنفسية عند الإنسان مكمّلة للطبيعة، وهي بهذا المعنى تخضع لما يحكمها من قوانين بالضرورة نفسها التي تخضع بها جميع المخلوقات الأخرى. لكن الوظائف الروحية، مثل الفهم والعمل الأخلاقي تقع خارج حدود الطبيعة المقرّرة، فهي تعتمد على صاحبها وتتبع قراره. وتحقيق إرادة الله في الجوانب الروحية له قيمة نوعية مختلفة عن تحققها بالضرورة عند المخلوقات الأخرى. والتحقُّق الضروري ينطبق على قيم العناصر المادية أو القيم النفعية وحَسْب؛ لكن الأداء الحرّ ينطبق على القيّم الأخلاقية. ومع ذلك فإن غايات الله الأخلاقية وأوامره للإنسان تمتلك أساساً في العالم المحسوس، لذا فإن لها جانباً نفعياً. لكن هذا الجانب لا يعطيها صفتها المتميّزة؛ أي كونها خُلُقية. إن الأوامر في جانبها القابل للتنفيذ بحريّة؛ أي بوجود إمكان الخروج عليها، هو بالضبط ما يوفّر المهابة التي نسبغها على الأشياء "الأخلاقية".[٢]

(١) سورة الإسراء الآية ٧٧؛ وسورة الأحزاب الآية ٦٢؛ وسورة فاطر الآية ٤٣؛ وسورة الفتح الآية ٢٣؛ وسورة الطلاق الآية ٣.

(٢) أي فعل "تقوم به الطبيعة" هو "بطبيعة الحال" لا يتصل بالأخلاق، ولا يستحق ثواباً ولا عقاباً. مثال ذلك التنفّس أو الهضم، أو فعل إحسان أو ظلم يجري تحت الإكراه. وخلاف ذلك تماماً فعل يتم بحريّة، مع احتمال أن يقوم فاعله به أو لا يقوم، أو أن يقوم بفعل آخر إلى جانبه.

قدرة الإنسان وطواعية الطبيعة

بما أن كل شيء قد خُلق لغاية -بما في ذلك كليّة الوجود- فإن تحقيق تلك الغاية يجب أن يكون ممكناً في المكان والزمان،[1] وبغير ذلك لا مفر من التشكيك، كما ستغدو الخليقة نفسها، ومسارا المكان والزمان، فاقدةً ما لها من معنى ومغزى. وبغير هذا الإمكان ينهار "التكليف" أو الالتزام الأخلاقي؛ وتتحطم بهذا الانهيار غائية الله أو قدرته. وتحقيق المطلق؛ أي السبب الإلهي للخلْق، يجب أن يكون ممكناً في مجال التاريخ؛ أي في حدود مسار الزمن بين الخليقة ويوم الحساب. والإنسان، بوصفه صاحب الفعل الأخلاقي، يجب أن يكون قادراً على تغيير نفسه وأمثاله من البشر؛ أي المجتمع، والطبيعة، أي محيطه، لكي يحقق النسق، أو الأمر الإلهي، في نفسه كما في تلك جميعاً.[2] والإنسان بوصفه هدف الفعل الأخلاقي، يجب أن يكون هو وأقرانه

---

(١) وتَصدُق على هذا الآيات التي تتحدث عن كمال خليقة الله (ينظر الهامش ١ و٢ ص١٣)، وتلك التي تؤكد على التزام الإنسان الأخلاقي ومسؤوليته. والإشارة إلى المسؤولية كثيرة الورود بحيث يصعب حصرها.

(٢) وهذا هو المعنى المتضمن في الآيات التي تشير إلى خضوع المخلوقات للإنسان ومنها: سورة الرعد الآية ٢؛ وسورة إبراهيم الآيتان ٣٢-٣٣؛ وسورة النحل الآية ١٢ و ١٤؛ وسورة الحج الآيات ٣٦-٣٧ و ٦٥؛ وسورة العنكبوت الآية ٦١؛ وسورة لقمان الآيتان ٢٠ و ٢٩؛ وسورة فاطر الآية ١٣؛ وسورة ص الآية ١٨؛ وسورة الزمر الآية ٥؛ سورة الزخرف الآية ١٣؛ وسورة الجاثية الآيتان ١١-١٢.

ومحيطه قادرين على تلقي الفعل المؤثر للإنسان بوصفه فاعلاً، وهذه القدرة هي عكس قدرة الإنسان الأخلاقية على الفعل، حيث يكون الإنسان فاعلاً. وبغير ذلك تصبح قدرة الإنسان على الفعل الأخلاقي مستحيلة، وتنهار الطبيعة الغائية في الكون. ومرة ثانية، لن يكون ثمة مهرب من التشكيك. ولكي يكون للخليقة غاية –وهذا افتراض ضروري لدى القول إن الله هو الله، وإن عمله ليس عبثاً– يجب أن تكون الخليقة مطواعة، قابلة للتحوّل، وقادرة على تغيير جوهرها وبنيتها وأحوالها وعلاقاتها؛ لكي تجسّد النسق أو الهدف الإنساني أو تجعله ملموساً. ويصدق هذا على الخليقة بأسرها بما في ذلك طبيعة الإنسان الجسدية والنفسية والروحية. وجميع المخلوقات قادرة على تحقيق ما يجب أن يكون؛ أي إرادة الله أو نسقه الكامل في هذا المكان وهذا الزمان.[١]

المسؤولية والحساب

إذا كان الإنسان ملزماً بتغيير نفسه ومجتمعه ومحيطه، لكي تتماشى كلها مع النسق الإلهي، وكان قادراً على فعل ذلك، وإذا كان كل هدف في فعله مطواعاً وقادراً على تلقّي فعله وتجسيد غايته، ينتج عن ذلك بالضرورة أن يكون الإنسان مسؤولاً. والالتزام الأخلاقي مستحيلٌ من دون مسؤولية أو حساب. فما لم يكن الإنسان مسؤولاً وما لم يكن مُحاسبَاً على أفعاله، يغدو التشكيك لا مهرب منه، مرة أخرى. فالحساب، أو تحقق المسؤولية، شرطٌ لازم للالتزام

(١) كما يؤكد في مواضع عديدة في القرآن الكريم على الالتزام الأخلاقي.

الأخلاقي والإلزام الأخلاقي. وهو يصدر عن طبيعة "المعيارية"[١] نفسها. وليس المهم أن يجري الحساب في المكان - الزمان أو في نهاية أحدهما أو كليهما، ولكن لا بدّ له أن يجري. وطاعة الله، أي القيام بما أمر وتحقيق نسقه، يعني بلوغ الفلاح والسعادة واليُسر. وخلاف ذلك؛ أي معصيته، يستجلب العقاب والعناء والشقاء وآلام الخسران.

---

(١) الآيات التي تذكر يوم الحساب كثيرة ولا داعي لسردهما جميعاً، منها: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦] ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

التوحيد بوصفه جوهر الحضارة

التوحيد بوصفه جوهر الحضارة الإسلامية، له جانبان أو بُعدان: المنهج والمحتوى. يحدِّد الجانب الأول أشكال تطبيق وتوظيف المبادئ الأولى في الحضارة؛ كما يحدد الجانب الثاني المبادئ الأولى نفسها.

جانب المنهج

يشمل هذا الجانب ثلاثة أسس، هي: الوحدة والعقلانية والتسامح. وتحدّد هذه الأسس شكل الحضارة الإسلامية، وهو ما يشيع في كل مِفْصَل من مفاصلها.

الوحدة:

لا توجد حضارة بلا وحدة. فما لم تكن العناصر التي تشكّل حضارة ما متّحدة، متناسجة، متناسقة مع بعضها، فإنها لا تشكل حضارة، بل خليطاً متراكماً. فمن الضروري وجود مبدأ يوحّد العناصر المختلفة ويكتنفها في إطاره. مثل هذا المبدأ يحوِّل الخليط من علاقات العناصر بعضها ببعض إلى بنية منتظمة تتميّز فيها مراتب الأفضلية أو درجات الأهمية.

وحضارة الإسلام تضع العناصر في بنية منتظمة وتحدد وجودها وعلاقاتها حسب نَسَق موحّد. وقد تكون هذه العناصر في حدّ

ذاتها آتية من مصدر محلّي أو أجنبي. والواقع أنْ ليس من حضارة لم تقتبس بعض العناصر الغريبة عنها، ولكن المهم أن تقوم تلك الحضارة بهضم تلك العناصر؛ أي إعادة تكوين أشكالها وعلاقاتها حتى تتمثّلها في نظامها الخاص. و"إدخال" تلك العناصر في ذلك الشكل الخاص هو في الواقع تحويلها إلى واقع جديد، حيث لا يعود وجودها وجوداً مستقلاً في حدّ ذاته أو في شكل تبعيتها السابقة، بل في شكل مكوّنات مندمجة في الحضارة الجديدة التي أُدخلت عليها. وليس مما يعيب أية حضارة كونها تضم مثل تلك العناصر، ولكن مما يُشين أية حضارة أن تكون قد جمّعت عناصر أجنبية وحسب، وأن تكون قد فعلت ذلك بشكل متنافر، ومن دون إعادة تشكيل أو استيعاب أو تمثّل. وفي هذه الحال، لا تزيد تلك العناصر عن أن يكون لها حضور مع تلك الحضارة، ولا تنتمي إليها عضوياً. ولكن إذا نجحت الحضارة في تحويل تلك العناصر وتمثُّلها في نظامها، فإن عملية التمثُّل هذه تغدو دليلاً على حيويتها وحركيتها وإبداعها. ففي أية حضارة متكاملة، وفي الإسلام توكيداً، تكون جميع العناصر المكوّنة، مادّية كانت أم بنيوية أم علائقية، منضوية تحت مبدأ أعلى واحد. وفي الحضارة الإسلامية يكون التوحيد هو ذاك المبدأ الأعلى، وهو المقياس الأساس للمسلم، ودليله ومعياره في مواجهة الديانات والحضارات الأخرى، وفي التعامل مع الحقائق والأوضاع الجديدة. فما يتفق مع ذلك المبدأ يتم قبوله وتمثّله، وما لا يتفق يتم رفضه وإدانته.

والتوحيد أو مبدأ وحدانية الله المطلقة وترفّعة وغائيته، يعني أن الله هو وحده الجدير بالعبادة والطاعة. والإنسان المطيع يحيا حياته في ظل هذا المبدأ، ويسعى أن تكون جميع أفعاله متّسقة معه، لتحقيق الغاية الإلهية. ويجب أن تكون حياته برهاناً على التوحّد بين عقله وإرادته، وهو الهدف الفذّ الذي يتوخاه في أعماله. وحياته لا تكون سلسلة من الأحداث المتجمّعة كيفما اتفق، بل مرتبطةً بمبدأ واحد شامل يجمعها إطار واحد، في وحدة واحدة. وهكذا تكون حياته ذات أسلوب واحد وشكل متكامل - هو الإسلام.

العقلانية:

والعقلانية هي إحدى مكوّنات جوهر الحضارة الإسلامية، بوصفها مبدأ منهجياً. وهي تقوم على ثلاثة أسس أو قوانين: الأول رفض جميع ما لا يتطابق مع الواقع؛ والثاني إنكار التناقضات المطلقة؛ والثالث الانفتاح على الأدلة الجديدة أو المناقضة. فالقانون الأول يحمي المسلم من الظن؛ أي من تكوين أي ادّعاء بالمعرفة لا يسنده دليل أو إثبات. والقرآن الكريم صريح في وصف المعرفة غير المؤكدة أنها مثال على "الظن" أو المعرفة المضللة التي يحظرها الله مهما كان هدفها ضئيلاً.[1] لذا يوصف المسلم بأنه شخص لا يدّعي بغير الحق. والقانون الثاني يحمي المسلم من

(١) نهى الله الإنسان عن الظن في أصحابه؛ سورة النساء الآية ١٥٦؛ وسورة الأنعام الآيتان ١١٥ و ١٤٨؛ وسورة يونس الآيتان ٢٦ و٦؛ وسورة الحجرات الآية ١٢؛ وسورة النجم الآيتان ٢٣ و ٢٨.

التناقض البسيط من جهة، ومن التناقض الظاهر من جهة أخرى.[١] والعقلانية لا تعني تقدم العقل على الوحي، بل رفض أي تناقض أساس بينهما.[٢] وتنظر العقلانية في الفرضيات المتناقضة، وتعيد النظر فيها مراراً وتكراراً بحثاً عن وجهٍ ربما يكون قد تخطّاه النظر، والذي لو تمّ أَخْذُه بعين الاعتبار، لكشَفَ عن العلاقة المتناقضة. وكذلك فإن العقلانية تقود مفسّر الوحي -لا الوحي نفسه- إلى تفسير آخر، خشية أن يكون قد فاته معنى غير ظاهر أو غير جليّ، بحيث لو أُعيد النظر فيه زال ما بدا له من غموض. ويؤدي مثل هذا اللجوء إلى العقل أو الإدراك إلى التنسيق، لا في هيئة الوحي نفسه -فالوحي فوق أي تلاعب من جانب الإنسان- بل في مستوى التفسير أو الفهم البشري له عند المسلم. وهو يجعل فهم الوحي عند المسلم متفقاً مع ما تجمّع من أدلّة كشَفَ عنها العقل. إن قبول المتناقض أو الموهِم بالصحّة كأنه الصحيح المطلق مسألة لا

(١) ليس لهذا المصطلح الإغريقي مرادف في العربية، وهو يصوّر الفرق بين العقليتين وراء اللغتين. ويشير المصطلح الإغريقي إلى عقيدة لا عقلانية يتمسّك بها المسيحيون.

(٢) رفع الفلاسفة العقل فوق الوحي وأعطوه موقع الأفضلية عند الحكم على الادعاءات الدينية. ولا شك في أنهم مخطئون في ذلك؛ إذ لا ريب أن المفكّر المسلم قادر على تعريف العقل بشكل مختلف واستعمال ذلك التعريف أساساً لكل الدعاوى الأخرى. ومن الممكن حتماً التساؤل عن صحة كل من التعريفين، ولا شك حول الانطباق الفلسفي ومعقولية - بل أفضلية - التعريف الإسلامي. والتعريف الوارد هنا بأن العقلانية هي رفض التناقض الذاتي، له قيمة إضافية في إدامة ميراث السلف الصالح.

تستهوي سوى ضعاف العقول. والمسلم الذكي يهتدي بالعقل؛ إذ يصرّ على وحدة مصدرين للحقيقة: الوحي والعقل.

أما القانون الثالث، أي الانفتاح على الأدلة الجديدة أو المتناقضة، فإنه يحمي المسلم من الحَرْفيّة والتعصّب والنزعة المحافظة المؤدية إلى الركود، كما يميل به إلى التواضع الفكري؛ فيحمله إلى إلحاق عبارة "والله أعلم" بما يثبت أو ينكر من قول. والمسلم على قناعة بأن الحقيقة أكبر من أن يستطيع السيطرة عليها تماماً.

كما أن التوحيد هو توكيد وحدانية الله المطلقة، فهو كذلك توكيد وحدانية الحقيقة. فالله، في الإسلام، هو الحقيقة. ووحدانيته هي وحدانية مصادر الحقيقة. والله هو خالق الطبيعة التي يستقي الإنسان معرفته منها. وهدف المعرفة هو أنساق الطبيعة التي هي من صنع الله. ولا شك في أن الله يعرف تلك الأنساق؛ لأنه هو صانعها، ولا شك كذلك في أنه هو مصدر الوحي. فالله يعطي الإنسان من علمِه، وعلمُه مطلقٌ وشامل. والله عز وجل ليس بمخاتل ولا وسيط حاقد غرضه أن يُضل عن سواء السبيل. كما إنه لا يُبدّل حكمه كما يفعل البشر عندما يعدّلون في علومهم، أو يصلحون من نواياهم أو قراراتهم. والله كامل وبكل شيء عليم. والله لا يخطئ، وإلا ما كان إله الإسلام العليّ.

التسامح:

التسامح، بوصفه مبدأ منهجياً، يفيد القبول بالحاضر حتى يثبت بُطلانه. وهو بهذا المعنى يتعلّق بنظرية المعرفة. كما يتعلّق بفلسفة الأخلاق وبوصفه مبدأ قبول مرغوب حتى يثبت بطلان الرغبة فيه.(١) ويطلق على الحالة الأولى اسم "السَّعَة"، وعلى الثانية اسم "اليُسْر". وفي كليهما حماية للمسلم من الانغلاق بوجه العالم، ومن النزعة المحافظة المميتة. وفي كليهما حثّ للمسلم على أن يُقبل على الحياة والتجربة الجديدة.

كما أن في كليهما تشجيعاً له على تناول الحقائق الجديدة بعقله المتفحّص وجهده البنّاء، وبذلك يُغني تجربته وحياته، كما يدفع بثقافته وحضارته دوماً إلى الأمام.

والتسامح، بوصفه مبدأً منهجياً ضمن جوهر الحضارة الإسلامية، يفيد اليقين بأن الله لم يترك الناس دون أن يرسل إليهم رسولاً من بين أنفسهم يعلّمهم أن لا إله إلا الله وأن عليهم عبادته وطاعته،(٢)

(١) يوجد الدليل على ذلك في الآيات التي تناقش التحريم الكيفي مثل سورة المائدة الآية ٩٠؛ وسورة الأعراف الآية ١٣؛ وسورة التحريم الآية١؛ كما يوجد في المبدأ الشرعي الأصولي المتفق عليه "لا تحريم إلا بنص" وينظر كذلك الآية: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ سورة الأنعام الآيتان ١١٩ و ١٥٣.

(٢) ينظر سورة الأنعام الآية ٤٢؛ وسورة يوسف الآية ١٠٩؛ وسورة الرعد الآية ٤٠؛ وسورة إبراهيم الآية ٤؛ وسورة الحج الآية ٩؛ وسورة النحل الآية ٤٣؛ وسورة الإسراء الآية ٧٧؛ وسورة الأنبياء الآيتان ٧ و ٢٥؛ وسورة المؤمنون الآية ٤٤؛ وسورة الفرقان الآية ٢٠؛ وسورة الروم الآية ٤٧؛ وسورة =

كما يحذّرهم من الشرّ وأسبابه.[1] وبهذا الخصوص، يفيد التسامح القناعة بأن لدى الناس جميعاً إدراكاً فطرياً يعينهم على معرفة الدين الحق، وتَبَيُّن إرادة الله وأوامره. والتسامح قناعة بأن اختلاف الأديان مرجعه إلى التاريخ وجميع ما فيه من عوامل مؤثرة، وظروف مختلفة في المكان والزمان، وما يكتنفه من ضروب التحامل والعواطف والمصالح. فوراء تنوُّع الأديان يوجد الدين الحنيف، دين الله في البَدْء الذي فُطر عليه جميع الناس قبل أن يتطبّعوا بما يجعلهم أتباع هذا الدين أو ذاك. ويتطلّب التسامح من المسلم أن يتجرّد لدراسة تاريخ الأديان، لكي يتبيّن في كل ديانة هبة الله الأولى، التي أرسل الله جميع رسله في كل مكان وزمان ليبلّغوها.[2]

وفي مجال الدين -الذي لا يكاد يوجد ما هو أكثر منه أهمية في العلاقات البشرية- يُحيل التسامحُ المواجهةَ والإدانات المتبادلة بين الأديان إلى دراسة علمية متعاضدة تتناول نشوء الأديان وتطوّرها، لغرض فصل التراكمات التاريخية عن معطيات الوحي الأصلية. وفي مجال الأخلاق، الذي يأتي في المرتبة الثانية من الأهمية، يكون "اليُسْر" حصانة للمسلم ضد أية ميول تُنكْر الحياة، وتوفّر له الحدّ الأدنى من التفاؤل اللازم للحفاظ على الصحة والتوازن وإعطاء الأمر

= الصافات الآية ٧٢؛ وسورة غافر الآية ٧٠.

(١) ينظر سورة النساء الآية ١٦٢؛ وسورة فاطر الآية ٢٣؛ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

(٢) سورة الروم الآية ٣٠.

حجمه. على الرغم من جميع المآسي والنوازل التي تصيب الحياة البشرية، يُطمئن الله خَلْقَه ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1] ومثلما يأمر الله عباده أن يتحققوا من كل دعوى قبل الحكم،[2] يلجأ علماء أصول الشريعة إلى التجريب قبل الحكم بالخير أو الشرّ على أي أمر مرغوب بما لا يناقض الأمر الإلهي صراحة.

ويصدر كلٌّ من السَّعة واليُسْر عن التوحيد مباشرة، بوصفه مبدأً في فلسفة الأخلاق. فالله الذي خلق الإنسان ليثبت جدارته في مجال الفعل، قد ترك له الحرية والقدرة على الإيجابية في العمل الجاد والحركة الواعية في هذه الدنيا. ويرى الإسلام أن ذلك هو سبب وجود الإنسان.

(١) سورة الشرح الآية ٦.

(٢) سورة الحجرات الآية ٧.

التوحيد بوصفه أول مبدأ في الفلسفة الماوراطبيعية

إن شهادة أن لا إله إلا الله تعني الإيمان بأن الله هو وحده الخالق الذي أعطى كل شيء وجوده، وأنه السبب الأعلى في كل حدّث، والمآل الأخير لكل الموجودات، وأنه هو الأول والآخر. والقول بهذه الشهادة عن رضا وقناعة، وفهم واعٍ لمحتواها، يؤدي إلى إدراك أن جميع ما يحيط بنا من أشياء وأحداث، وكل ما يجري في الميادين الطبيعية والاجتماعية والنفسية هو من عمل الله، وتنفيذ لغاية من غاياته. وعندما يتم هذا الإدراك يغدو طبيعة ثانية للإنسان، لا تنفصل عنه طوال ساعات يقظته، فيعيش المرء كل لحظات حياته في ظل هذا الإدراك. وحيث يتبين المرء أمر الله وفعله في كل شيء وحَدَث، فإنه يتبع المبادرة الإلهية؛ لأنها من عند الله.

وملاحظة هذه المبادرة في الطبيعة هي ممارسة العلم الطبيعي؛[1]

(١) لم تتطور العلوم الطبيعية إلا بعد قبول الرأي القائل إن الأحداث الطبيعية تتبع دائماً القوانين الثابتة نفسها. وهذا بالضبط ما قدّمه الإسلام لتطوير العلم الطبيعي بين أتباعه. فإصرار الإسلام على انتظام الكون بأمر الله وفّر الجوّ الضروري لنموّ الروح العلمية. لكن الاعتقاد المعاكس، القائل بأن الطبيعة لا ثبات لها، بل هي مجال فعل آلهة تعسّفية تجسّدت فيه؛ أو قوى سحرية تسيطر عليه، هو اعتقاد لا يمكن أن يؤدي إلى عِلْم.

لأن المبادرة الإلهية في الطبيعة ليست سوى القوانين الثابتة التي وهبها الله لها.[1] وملاحظة المبادرة الإلهية في نفس المرء أو في مجتمعه هي ممارسة العلوم الإنسانية والاجتماعية.[2] وإذا كان الكون بأسره هو في الحقيقة تفتُّح هذه القوانين في الطبيعة أو تطبيقها؛ لأنها هي أوامر الله وإرادته، يغدو الكون في عين المسلم مسرحاً حيّاً يتحرّك بأمر الله. والمسرح نفسه، وجميع ما يحتويه يمكن تفسيره في هذه الحدود. لذا يكون معنى وحدانية الله أنه هو السبب في كل شيء، وأن ليس غيره من مسبّب.

ويترتّب على ذلك بالضرورة القول إن التوحيد يفيد إلغاء أية قوة فاعلة في الطبيعة إلى جانب الله، الذي تكون مبادرته الأزلية هي القوانين الثابتة في الطبيعة. لكن هذا يضارع إنكار أية مبادرة في الطبيعة من جانب أية قوة غير تلك الكامنة في الطبيعة، من مثل السِّحر والشعوذة والأرواح أو أية خاطرة خفيّة، عن تدخّل تعسّفي في عمليات الطبيعة من أي مصدر كان. لذلك يعني التوحيد نزع القداسة عن مجالات الطبيعة، وإضفاء صفة غير دينية عليها. وذلك هو على وجه الإطلاق الشرط الأول في علم الطبيعة. فمن خلال

(١) خلافاً للتاريخ الذي يدرس حدثاً معيّناً ويرجع بتحليله إلى مكوّناته الفردية ويقيم علاقاتها المتبادلة، فإن العلوم الطبيعية تُعنى بالنمط العام والقانون الشامل الذي ينطبق عليه جميع التفاصيل في صنف معيّن، أو جميع مفردات ذلك الصنف أو جميع الأصناف.

(٢) ويصدق القول نفسه على العلوم الاجتماعية والإنسانية، حيث يكون الغرض تثبيت القوانين التي تحكم أو تحدد السلوك البشري، فردياً كان أم جماعياً.

التوحيد، إذن، انفصلت الطبيعة عن الآلهة والأرواح في الديانات البدائية. وبفضل التوحيد، غدا الذهن الديني صانع الأساطير قادراً للمرة الأولى على أن يشبّ عن حدوده، كما استطاعت علوم الطبيعة والحضارة أن تتطور بمباركة نظرة دينية تفسّر العالم وترفض بشكل قاطع أي ترابط بين المقدّس والطبيعة. والتوحيد نقيض الخرافة أو الأسطورة، وهما عدوّان للعلم الطبيعي والحضارة؛ فهو يجمع خيوط السببيّة كافّة، ويعيدها إلى الله لا إلى القوى الخفيّة. وفي آناء ذلك، تنتظم القوة السببيّة الفاعلة في أي حدَث أو شيء، لتغدو خيطاً مستمراً تترابط أجزاؤه مع بعضها سببيّاً، ومن ثَمّ تجريبيّاً. ولأن هذا الخيط يؤول إلى الله أخيراً، فإن الأمر يتطلب ألا تتدخّل أية قوّة من الخارج في مجال تطبيق قوته السببيّة أو فعّاليته. ويفترض هذا بدوره مقدّماً أن تكون الترابطات بين الأجزاء سببيّة، وأن تخضع للتمحيص التجريبي قبل الإقرار بها. وكون قوانين الطبيعة أنساق الله التي لا تُجارى، يعني أن الله يمسك بخيوط الطبيعة من خلال الأسباب. ولا يكوّن نسقاً إلا سببيّةٌ من مسبّب آخر؛ له الصفات نفسها دوماً. ودوام السببيّة هذا هو بالضبط ما يجعل فحصها واكتشافها –ومن ثمَّ العلم بها– أمراً ممكناً. وليس العلم سوى البحث عن مثل هذه السببيّة المتكررة في الطبيعة؛ لأن الروابط السببيّة التي تكوّن الخيط السببي تتكرر في خيوط أخرى. وتأسيسها هو تأسيس قوانين الطبيعة؛ وذلك مطلب مُسبَق لإخضاع قوى الطبيعة السببية للسيطرة والتوجيه، وشرطٌ ضروري لتمتُّع الإنسان بالطبيعة.

التوحيد بوصفه أول مبدأ في فلسفة الأخلاق

يؤكد التوحيد أن الله خلق الإنسان في أحسن صورة، لكي يعبده ويقدّس له.[1] وهذا يعني أن وجود الإنسان على الأرض غايته في مجمله طاعة الله وتنفيذه أوامره. ويؤكد التوحيد كذلك أن هذه الغاية تكمن في كون الإنسان خليفة الله في الأرض.[2] ويشير القرآن أن الله قد حمّل الإنسان أمانته، وهي أمانة لم تستطع حملها السماوات والأرض، فتقاعسن عنها في رُعب.[3] وهذا الائتمان الإلهي هو تنفيذ الجزء الأخلاقي من الإرادة الإلهية، التي تتطلّب طبيعتها أن تتحقق الإرادة في حريّة، والإنسان هو المخلوق الوحيد القادر على فعل ذلك. وحيث تتحقق الإرادة الإلهية بحكم القانون الطبيعي، لا يكون التحقُّق عند ذلك أخلاقياً، بل جوهرياً أو نفعياً. والإنسان هو وحده القادر على تحقيق الإرادة الإلهية، مع احتمال أن يفعل أو لا يفعل ذلك على الإطلاق، أو أن يفعل العكس تماماً، أو أي شيء بين الاثنين. إن ممارسة الحرية البشرية هذه بخصوص إطاعة أمر الله هي ما يجعل تنفيذ الأمر عملاً أخلاقياً.

---

(١) حسب منطوق الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

(٢) ينظر سورة البقرة الآية ٤٠؛ وسورة الأنعام الآية ١٦٥؛ وسورة يونس الآية ١٤.

(٣) ينظر سورة الأحزاب الآية ٧٢.

يؤكد التوحيد أن الله برحمته وقصده لم يخلق الإنسان لَعِباً أو عبثاً. فقد منحه الحواس والعقل والفهم وجعله كاملاً، بل قد نفخ في الإنسان من روحه،[1] ليؤهله للقيام بذلك الواجب العظيم.

هذا الواجب العظيم هو السبب في خَلْق الإنسان. فهو الهدف النهائي للوجود البشري، وهو الذي يحدّد ماهيّة الإنسان ويبيّن معنى حياته ووجوده على الأرض. وبفضل ذلك، يتسنّم الإنسان وظيفة كونية ذات أهمية هائلة. ولن يكون الكون على ما هو عليه دون ذلك الجزء الأسمى من الإرادة الإلهية التي هي غاية جهد البشر الأخلاقي. ولا يوجد مخلوق آخر في الكون يمكن أن يقوم مقام الإنسان في هذا الواجب. والإنسان هو الجسر الكوني الوحيد الذي يمكن أن يمرّ منه الجزء الأخلاقي -وهو الأسمى- من الإرادة الإلهية، باتجاه المكان - الزمان، ليغدو تاريخاً.

و"التكليف" أو المسؤولية التي فُرضت على الإنسان دون سواه لا تقف عند حدود إطلاقاً. فهي تشمل الكون بأسره. والجنس البشري كله هدفٌ لفعل الإنسان الأخلاقي؛ ومجاله الأرض والسماء جيمعاً. فهو مسؤول عن كل ما يحدث في الكون، في كل رقعة من أقصى رقاعه؛ لأن تكليف الإنسان شامل وكوني، ولا ينتهي إلا يوم القيامة.

---

(١) ينظر سورة الحجر الآية ٢٩؛ وسورة الأنبياء الآية ٩١؛ وسورة ص الآية ٧٢، وسورة التحريم الآية ١٢.

ويؤكد الإسلام أن التكليف هو أساس إنسانية الإنسان ومعناها ومحتواها. وقبول الإنسان بتحمل هذا العبء؛ إذ يرفعه فوق مستوى بقية المخلوقات، بل فوق مستوى الملائكة. فليس غير الإنسان بقادر على تحمّل المسؤولية، فهي تمثّل مغزاه الكوني. وثمة بون شاسع بين إنسانية الإسلام هذه وغيرها من الإنسانيات. فالحضارة الإغريقية مثلاً قد طوّرت اتجاهاً قوياً نحو الإنسانية اتخذه الغرب مثالاً يحتذى منذ عصر الانبعاث. وكان مذهب الإغريق في الإنسانية يقوم على الإغراق في المذهب الطبيعي إلى حدّ تأليه الإنسان ومثالبه معاً؛ لذلك لم يكن الإغريقي يشعر بالامتعاض عند تصوير آلهته في حالة خداع أو تآمر بعضها على بعض، أو تعاطي العُهْر أو الفحش أو السرقة أو الاعتداء أو الغيرة أو الانتقام أو غير ذلك من الأفعال الوحشية. وإذ كانت هذه الأفعال تُعدّ من جنس مادة الحياة البشرية، فقد كان يُنظر إليها على أنها طبيعية، مثل الفضائل وصفات الكمال، وكلتاهما، كما هو حال الطبيعة، تُعدّ من الصفات الإلهية التي تستحق التأمل في شكلها الجمالي، كما تستحق العبادة والمحاكاة من جانب الإنسان، لأن الآلهة هي صورة الإنسان الإلهية. ومن ناحية أخرى، كانت المسيحية في طور التكوين تعارض هذه الإنسانية الإغريقية - الروميّة؛ إذ وقفت على النقيض الأقصى منها، فنزلت بقَدْر الإنسان من خلال "الخطيئة الأصلية": وأعلنته "مخلوقاً هابطاً" أو "كتلة خاطئة".(١)

---

(١) حسب عبارة القديس أوغسطين.

إن النزول بالإنسان إلى مستوى من حالة الخطيئة، المطلقة، الشاملة، الفطرية الحتمية، التي لا يقوى على انتشال نفسه منها أي بشر بجهده الخاص، كانت الشرط المنطقي لو كان على الله في الأعالي أن يجسّد نفسه، فيقاسي، ويموت تكفيراً عن خطيئة البشر. وبعبارة أخرى، إذا كان للخلاص أن يحدث بوساطة الله، فلا بدّ من وجود مأزق هو من الخطورة بحيث لا يكون بمقدور أحد سوى الله انتشال الإنسان منه. وهكذا فقد جُعلت خطيئة الإنسان على درجة من الإطلاق بحيث "تستحق" صَلْب الإله. لقد قسّمت الهندوسية الجنسَ البشري إلى طبقات، وخصّصت الطبقات الأدنى لغالبية الجنس البشري، وأطلقت عليهم اسم "المنبوذين" إذا كانوا من أهل الهند، واسم "ماليتجا" أو المدنَّسين دينياً إذا كانوا من بقية البشر. ولا سبيل إلى أفراد الطبقة الأدنى أو غيرهم أن يرتفعوا في هذه الحياة إلى طائفة "البراهمة" المتميزة الأسمى؛ لأن مثل هذا الانتقال غير ممكن إلا بعد الموت عن طريق تناسخ الأرواح. ففي هذه الحياة، ينتمي الإنسان بالضرورة إلى الطائفة التي ولد فيها. والجهد الأخلاقي لا فائدة منه لصاحبه ما دام حيّاً في هذه الدنيا. وأخيراً، فإن البوذية قد حكمت على حياة البشر وغيرها من المخلوقات على أنها عذاب وتعاسة لا نهاية لهما. وهي ترى أن الوجود نفسه شرّ، وأن واجب الإنسان الوحيد الذي يمكن أن يكون له معنى هو أن يسعى جهده للتخلص من ذلك الوجود بضبط النفس والجهد العقلي.

وإنسانية التوحيد وحدها هي الأصيلة الخالصة. فهي وحدها تحترم الإنسان بوصفه إنساناً ومخلوقاً، دون تأليه أو تحقير. وهي وحدها تحدّد قيمة الإنسان بما يزيّنه من فضائل، وتبدأ تقييمها بالإشارة الصريحة إلى الموهبة الفطرية التي أسبغها الله على الناس جميعاً استعداداً لقيامهم بواجبهم النبيل. وهي وحدها تحدّد الفضائل والمثل العليا في الحياة البشرية في إطار محتويات الحياة الطبيعية نفسها بدلاً من أن تنكرها، وبهذا تغدو إنسانية التوحيد أخلاقية، إضافة إلى صفتها في توكيد الحياة.

التوحيد بوصفه أول مبدأ في علم القيم

يؤكد التوحيد أن الله خلق الجنس البشري، لكي يثبت الناس أخلاقيتهم من خلال أعمالهم.[١] والله هو الحكَم الأخير الأسمى، ينذر الناس جميعاً أنهم سوف يحاسبون على أعمالهم؛[٢] وأن من يعمل خيراً سوف يثاب ومن يعمل شرّاً سيلقى العقاب؛[٣] ويضيف التوحيد تأكيداً أن الله أنشأ الإنسان في الأرض ليعمرها؛[٤] أي ليسير في أرجائها، ويأكل من ثمراتها، ويتمتّع بخيرها وجمالها، فتزدهر الأرض ويكون هو من المفلحين.[٥] وفي هذا توكيد لموقع العالَم والقبول به؛ لأنه بريء وطيّب، خلقه الله ونظّمه لخير البشر. والحق أن كل شيء في العالم، بما في ذلك الشمس والقمر، قد سُخّر لمصلحة الإنسان. والخليقة كلها مسرح يؤدي فيه الإنسان فعله الأخلاقي، وبذلك يحقق الجزء الأعلى من إرادة الله. والإنسان مسؤول عن تلبية

---

(١) ينظر سورة هود الآية ٧؛ وسورة الكهف الآية ٧؛ وسورة محمد الآية ٣١؛ وسورة الملك الآية ٢.

(٢) ينظر سورة التوبة الآيتان ٩٥ و ١٠٦.

(٣) سورة الزلزلة الآيتان ٧ و٨؛ وسورة القارعة الآيتان ٦ و ١١.

(٤) ينظر سورة هود الآية ٦١.

(٥) ينظر سورة البقرة الآيتان ٥٧ و ١٧٢؛ وسورة المائدة الآية ٩٠؛ وسورة الأعراف الآيتان ٣١ و ١٥٩؛ وسورة طه الآية ٨١؛ وسورة المُلك الآية ١٥؛ وسورة الليل الآية ١٠.

غرائزه وحاجاته، وكل فرد مسؤول عن مثل ذلك. وعلى الإنسان أن يطوّر القدرات البشرية عند الناس جميعاً إلى أقصى درجة ممكنة، لكي تتم الإفادة من جميع مواهبهم الطبيعية. وعليه أن يحيل الأرض جميعاً إلى بساتين منتجة وحدائق جميلة، وله في آناء ذلك أن يستكشف الشمس والقمر عند الضرورة.(١) ومن المؤكد أن عليه أن يعمِّر العالم ويُطوّره إذا أريد له أن يكون جنّة تكون فيها كلمة الله هي العليا.

هذا التوكيد على العالم يُبدع الحضارة حقاً، فهو يخلق العناصر التي تُصنع منها الحضارات، والقوى الاجتماعية الضرورية لنموها وتطوّرها. والتوحيد نقيض الرهبنة والاعتزال وإنكار العالم والزهد.(٢)

والتوكيد على العالَم لا يعني قبولاً غير مشروط له وللطبيعة على حالهما. فمن دون مبدأ يتم على أساسه تفحّص ما أنجزه الإنسان، قد يتّجه توكيد العالَم والطبيعة إلى النقيض منه بالمبالغة في السعي نحو إحدى القيم أو العناصر أو القوى، أو مجموعة منها على حساب الأخريات. إن موازنة وتنظيم سعي الإنسان، لكي يؤدي به إلى تحقيق

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن: ٣٣].

(٢) ينظر سورة الحديد الآية ٢٧. والحقيقة أن الله يأمرنا في سورة القصص (٧٧) بقوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ وقد أمر البشر أن يدعوا له لكي يؤتيهم ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة: ٢٠١] و [الأعراف: ١٥٦]، ثم إن الله تعالى طمأن المؤمنين أنه سيستجيب لدعائهم إذا هم عملوا صالحاً [سورة النحل الآية ٣٠؛ وسورة الزمر الآية ١٠].

متناسق للقيم جميعاً، حسبما يناسبها من نظام الأفضلية، لا بدافع استعجال الإنسان أو عاطفته أو حماسه أو عماه هو مطلب سابقٌ ضروري. ودون ذلك قد ينتهي السعي بمأساة أو بنتيجة سطحية، أو قد يُطْلِق بعض القوى الشيطانية الحقيقية. فالحضارة الإغريقية، مثلاً، قد بالغت في سعيها نحو العالم. فقد كانت تؤكد أن كل ما في الطبيعة خيرٌ خالص، لذا فهو يستحق السعي والتحقيق. وكانت تنادي بأن كل ما هو مرغوب حقاً؛ أي موضع اهتمام حقيقي، هو خيرٌ بطبيعة الحال؛ لأن الرغبة نفسها خيرٌ، لكونها طبيعية. وإذ يغلب أن تُناقِض الطبيعة نفسها، فإن ذلك، إضافة إلى احتمال تعارض مسارات مثل هذه الرغبات أو عناصر الطبيعة بعضها بعضاً، لم يكن له ما يكفي من جاذبية، ليَضمن إعادة النظر في الفرضية الأولى. فالحاجة إلى مبدأ خارق، يعلو على جميع الميول والرغبات في الطبيعة. وفي إطاره يمكن فهمٍ جميع تناقضاتها واختلافاتها، وهي مسألة يجب إدراكها. ولكن بدلاً من إدراك هذه الحقيقة، كانت الحضارة الإغريقية مأخوذة بجمال الطبيعة بحدّ ذاتها، بحيث حَسِبَت النتيجة المأساوية للمذهب الطبيعي نفسَها مسألةً طبيعية. فمنذ عصر الانبعاث أخذت الحضارة الغربية الحديثة تولي أقصى اهتمام للمأساة. فكانت حماستها للمذهب الطبيعي قد حملها إلى التطرف في قبول طبيعة دون أخلاق وكأنها حالة خارقة. وحيث كان صراع الإنسان الغربي موجهاً ضد الكنيسة وجميع ما تمثّله، فقد أخذ تقدّمه في مجال العلم يُعدّ تحرراً من رِبْقَةِ الكنيسة.

ومن هنا غدا من بالغ الصعوبة محض تصوّر توكيد العالم أو المذهب الطبيعي متصلاً بخيوط قياسية تمتد من مصدر مطلق عقلي استنتاجي. ودون هذه الخيوط، لا بدّ للمذهب الطبيعي أن ينتهي بتناقض ذاتي، وفي صراعات ذاتيّة لا يمكن حلُّها "خارج حدود الافتراض". ولم تستطع جماعة آلهة (الأولمب) أن تعيش مع نفسها في وئام، فكان عليها أن تدمّر نفسها. لذا كان توكيد العالم عند آلهة الإغريق عبثاً لا طائل منه.

إن ضمانة توكيد العالم، التي تكفل له إنتاج حضارة متوازنة دائمة قادرة على إصلاح ذاتها، هي الأخلاق. والواقع أن الحضارة الحقة ليست سوى توكيد للعالَم تحكُمه أخلاق فطرية أو خارقة للطبيعة لا يتنافى محتواها الداخلي أو قيُمها مع الحياة والعالَم والزمان والتاريخ والعقل. مثل هذه الأخلاق لا يقدّمها سوى التوحيد من بين المذاهب الفكرية المعروفة عند الإنسان.

التوحيد بوصفه أول مبدأ في وحدة الأمة

يؤكد التوحيد ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[(١)] ويفيد التوحيد أن المؤمنين هم في الحقيقة جماعة أُخُوَّةٍ واحدة، يُحبُّ بعضهم بعضاً في الله ويتواصون بالحق والصبر.[(٢)] ويعتصمون بحبل الله جميعاً ولا يتفرقون،[(٣)] ويعتمد بعضهم على بعض ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر،[(٤)] وأخيراً، يطيعون الله ورسوله.[(٥)]

ورؤية الأمة واحدة؛ وكذلك شعورها أو إرادتها إضافة إلى فعلها. والأمة مجموعة منتظمة من البشر تتكون من تجمّع ثلاثي قوامه العقل، والقلب، والذراع. وثمة توافق في فكرهم، وقرارهم، وموقفهم، وشخصيتهم كما في سواعدهم. والأمة أخوة شاملة لا تعبأ باللون أو الهوية العرقية. وفي حدود هذه الرؤية يكون جميع الناس

---

(١) ينظر سورة الأنبياء الآية ٩٢؛ وسورة المؤمنون الآية ٥٣.

(٢) كما ورد في سورة العصر الآية ٣؛ وينظر كذلك سورة الحجرات الآية ١٠.

(٣) ينظر سورة آل عمران الآية ١٠٣.

(٤) ينظر سورة آل عمران الآية ١١٠؛ وسورة المائدة الآية ٨٢؛ وسورة التوبة الآية ١١٣؛ وسورة طه الآيتان ٥٤ و ١٢٨.

(٥) كما أمر الله تعالى في سورة آل عمران الآيتان ٣٢ و ١٣٢؛ وسورة النساء الآية ٥٨؛ وسورة المائدة الآية ٩٥؛ وسورة النور الآية ٥٤؛ وسورة محمد الآية ٣٣؛ وسورة التغابن الآية ١٢.

سواسية لا يفضلُ بعضهم بعضاً إلا بالتقوى.[1] ولئن أصاب أحدُ أفراد الأمة معرفة جديدة وجب عليه أن يُعلّمها للآخرين. وإن أصاب أحدهم رزقاً أو راحة وجب عليه مشاركة الآخرين في ذلك. وإن بلغ أحدهم منزلةً أو نجاحاً أو رفاهية وجب عليه أن يساعد الآخرين، كي يبلغوا ما بلغه.[2]

لذلك لا يوجد التوحيد بغير وجود الأمة. الأمة وسيلة المعرفة والأخلاق، وخلافة الإنسان (في الأرض) وتوكيد العالَم. والأمة نظام كوني يشمل حتى غير المؤمنين من الناس. وهو نظام سلام، سلام إسلامي، منفتح أبداً أمام جميع الأفراد والجماعات الذين يؤمنون بمبدأ الإقناع والاقتناع بالحقيقة، ويبحثون عن نظام عالمي تكون فيه الأفكار والبضائع والثروات والناس أحراراً في الحركة والانتقال. والسلام الإسلامي نظام عالمي يتفوّق كثيراً على نظام الأمم المتحدة، ذاك الذي وُلد بالأمس، وقد أجهضته وأفسدته مبادئ الأمة – الدولة وسيطرة "القوى العظمى"، وكلاهما من مكوّنات ذلك النظام. وتقوم تلك المبادئ بدورها على "السيادة الوطنية" التي ظلت تصدر عن التاريخ الفكري الأوروبي منذ عصر الإصلاح الديني، وزوال المثل

(١) كما ورد في الحديث عن حجّة الوداع. ونعني بالإجماع الثلاثي تساوي الرؤية أو الذهن أو التفكير، واتفاق الإرادة أو القرار أو القصد، واتفاق الفعل أو السواعد البشرية.

(٢) يشبّه الرسول الكريم المسلمين كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، وكالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء.

الأعلى في المجتمع العالمي الذي كانت الكنيسة تنادي به دون حماس كبير. لكن السيادة الوطنية تقوم في جوهرها على نسبية في القيم والأخلاق.

ويظهر نجاح الأمم المتحدة إذا قامت بالدور السلبي في منع أو إيقاف الحرب بين أعضائها. وحتى هنا يبدو هذا النظام عاجزاً؛ لأنه لا يمتلك جيشاً إلا عندما يتفق أعضاء "القوى العظمى" في مجلس الأمن على تقديم جيش لغرض معيّن. وعلى النقيض من ذلك، فقد وُضِع السلام الإسلامي في دستور دائم على يد النبي الكريم في المدينة المنوّرة في الأيام الأولى للهجرة. فقد جعل الرسول الكريم ذلك الدستور يشمل يهود المدينة والمسيحيين من أهل نجران ضامناً لهم هويتهم، ومؤسساتهم الدينية والاجتماعية والثقافية. ولا يعرف التاريخ أي دستور مدوّن آخر كرّم الأقلّيات كما فعل دستور الدولة الإسلامية في المدينة. وقد بقي دستور المدينة نافذ المفعول في الدول الإسلامية المختلفة لأربعة عشر قرناً خلت، صامداً بوجه الطغاة والثورات من أشكال شتى، بما فيهم جنكيز خان وهولاكو.

فالأمّة، إذن، نظام عالمي إضافة إلى كونه نظاماً اجتماعياً وهي أساس الحضارة الإسلامية. وشرطٌ لا بد منه. ففي تمثيل العقل البشري في شخص حيّ بن يقظان ومسيرته اكتشف الفلاسفة أن حيّ بن يقظان قد توصّل بجهده الخاص إلى اكتشاف حقيقة الإسلام، والتوحيد الذي هو جوهره. وبعد ذلك، كان على حيّ

أن يخترع أو يكتشف "الأُمّة". لذلك صنع لنفسه زورقاً من جذع شجرة خاوية وانطلق في مجاهل المحيط بحثاً عن "الأُمّة" التي من دونها تغدو معرفته بأسرها غير منسجمة مع الحقيقة.

وبكلمة واحدة، التوحيد هو "مذهب الأمة".

التوحيد بوصفه أول أساس في الجماليات

يفيد التوحيد استبعاد الألوهية من مجال الطبيعة بأسره. فكل ما كان في الخليقة أو منها فهو مخلوق، لا يسمو على نفسه، ويخضع لقوانين المكان والزمان. وليس فيها ما يمكن أن يكون الله أو إلهياً بصفاته بأي معنى، وبخاصة بالمعنى الوجودي الذي ينكره التوحيد بوصفه جوهر وحدانية الله. والله هو غير الخليقة وغير الطبيعة إطلاقاً، لذا فهو المتعال. والمتعال الأوحد. ويؤكد التوحيد أيضاً أن لا شيء يشبه الله،[1] لذلك لا يوجد في الخليقة ما يمكن أن يكون شبيهاً أو رمزاً لله. ولا يمكن لشيء أن يمثّله، فهو بحُكْم التعريف أبعد عن التمثيل. فالله هو الذي لا يمكن أن يمثّله أي إبداع جمالي مهما يكن.

والمقصود بالخبرة الجمالية هو إدراك جوهر البَدْئي الماوراطبيعي عن طريق الحواس، حيث يكون هذا الجوهر مبدأً قياسياً للشيء المرئي. وهو ما يجب أن يكون عليه الشيء. وكلما اقترب الشيء المنظور من الجوهر، كان أكثر جمالاً. وفي حالة الطبيعة الحيّة والنبات والحيوان، وبخاصة في حالة الإنسان، يكون الشيء الجميل هو الذي يقترب من الجوهر البدئي أشد اقتراب ممكن، مما يجعل القادر على إصدار حُكمٍ مُحقّاً لو قال إن الطبيعة قد أفصحت عن

---

(١) ينظر سورة الشورى الآية ١١.

نفسهـا ببراعة في هذا الشيء الجميل، وإن الشيء الجميل هو ما أرادت الطبيعة التعبير عنه،

وهو ما يندر أن تفعله بين عيوبها الكثيرة. الفن عملية تسعى لتكتشف في داخل الطبيعة ذلك الجوهر الماوراطبيعي لتمثله في شكلٍ منظور. ومن الواضح أن الفن ليس محاكاة للطبيعة المخلوقة، ولا هو بالتمثيل الحسّي للطبيعة "المطبّعة"؛ أي الأشياء التي اكتمل "تطبيعها" أو واقعها الطبيعي. وقد يكون التمثيل الفوتوغرافي ذا قيمة بوصفه وسيلة إيضاح أو لغرض التوثيق أو لإثبات الهوية، ولكنه لا قيمة له في قياس العمل الفني. الفن هو أن تُدخل في الطبيعة عنصراً هو غير الطبيعة، وأن تُعطي ذلك العنصر الشكل المنظور الذي يناسبه.

وكما سبق الوصف والتحليل، يفترض الفن بالضرورة إيجاد شيء في الطبيعة هو ليس منها. لكن الذي ليس من الطبيعة هو المتسامي؛ وليس غير الإلهي يمكن أن ينطبق عليه مثل هذا الوصف. وإضافة إلى ذلك، ولأن الجوهر البدئي الذي هو موضوع التذوق الجمالي يتصف بالقياسية والجمال، فإن عواطف الإنسان تتأثر به بشكل خاص. من أجل ذلك يحبُّ الناسُ الجميلَ ويقعون تحت حُكمه. وحيث يرى الناسُ الجميلَ في الطبيعة البشرية، يكون العنصر البدئي الفائق الطبيعة في الحالة البشرية قد ارتفع إلى درجة التسامي. وهذا بالضبط ما دعاه الإغريق باسم "التأليه" أو إحالة البشري إلى إلهي. ويميل البشر بشكل خاص إلى عبادة مثل هؤلاء البشر

المتحوّلين ويحسبونهم آلهة. والإنسان الغربي الحديث لا يصبر كثيراً على أي إله عندما يتعلق الأمر بشؤون ما وراء الطبيعة. ولكن عندما يتعلّق الأمر بالأخلاق والسلوك، فإن "الآلهة" التي يخلقها، من تعظيمه المشاعر والميول البشرية، هي التي تتحكَّم بأفعاله في الواقع.

وهذا يفسّر السبب في أن أبرز الممارسات الجمالية عند قدماء الإغريق كانت تعنى بفنون تمثيل الآلهة في صورٍ تُمجِّد عناصر وصفات ومشاعر بشرية، نجدها في الفنون المنظورة في فن النحت، وفي الفنون المتخيّلة في الشعر والدرامة. وكانت الأشياء التي يمثلونها -أي الآلهة- جميلة، لأنها كانت تمجيداً لما يجب أن تكون عليه الطبيعة البشرية، لكنّ جمالها لم يكن ليخفي الصراع المتأصِّل بين كل إله والآلهة الأخرى، وما ذلك إلا لأنّ كل واحد منها كان الشيء الحقيقي من طبيعة أُطلقت إلى مستواها الإلهي الخارق الطبيعة.

وفي روما، مسرح التدهور الإغريقي، انحدر فن النحت الإغريقي النفيس إلى تصوير واقعي تجريبي لمختلف الأباطرة. وحتى هناك، لم يكن لذلك التصوير أن يتم من دون تأليه الإمبراطور. وعند الإغريق، حيث بقيت النظرية نقية لقرون عدّة، تطوّر فن الدراما إلى جانب النحت لغرض تمثيل الخصومات الأزلية بين الآلهة عن طريق عرض سلسلة من الأحداث، تنشبك بها شخصيات الدراما. وكان الغرض الأشمل من ذلك تمثيل شخصيات الآلهة التي كان المشاهدون يعلمون أنها شخصيات

بشرية بالتأكيد، ولكنها كانت في الوقت نفسه مصدر متعة كبرى. وإذا كانت الأحداث الدرامية التي تتكشف أمام أعينهم تؤدي إلى نهاية مأساوية، فإن ذلك كان يُرى ضرورة وبداهة. وكانت تلك الضرورة تزيل ما تخلّفه المأساة من ألم، ومن خلال "التطهّر" تدفع عنهم ما يشعرون به من ذنب تجاهً ما اقترفوا من ممارسات لا أخلاقية. من أجل ذلك كان فن المأساة -الذي ولد واكتمل في بلاد الإغريق- يُعدّ الذروة في الفنون الأدبية وفي الدراسات الإنسانية جميعاً. وفي حالة نادرة من الإقرار بالحقيقة قال المستشرق ج. ي. فون كرونَباوم G.E. von Grunebaum: "إن الإسلام لم يعرف الفنون التشخيصية (النحت والرسم والدراما) لأنه يخلو من أية آلهةٍ متجسّدة أو حالة في الطبيعة، آلهةٍ أنشطتها صراع بعضها مع بعض أو مع الشر."(١) وكان "فون كرونباوم" يقصد بذلك لوم الإسلام. لكن ما قاله يشكّل في الحقيقة امتياز الإسلام الأول. وإنّ مجدَ الإسلام الفريد أنه يخلو تماماً من عبادة الأصنام، ومن الخلط بين المخلوق والخالق. لكنّ كلام الرجل يبقى صحيحاً؛ لأنه يظهر العلاقة الحميمة بين الفنون التشخيصية والديانات الوثنية ولاهوت التجسّد في الغرب.

سبق لليهود التوكيد على أن سموّ الله يَستَبعِد أي نوع من "الصور

---

(١) لمزيد من التفصيلات حول هذه المسألة ينظر: إسماعيل الفاروقي؛ [الإسلام والفن].

- I.R. al-Faruqi, " Islam and Art", Studia Islamica, 37 (1973), pp. 81-109.

المنحوتة" وقد ألزموا أنفسهم؛ إطاعة لذلك الأمر الإلهي، بتاريخ كامل مما يشبه الانسحاب التام من أي فن من الفنون البصرية.[١] وقد أنتجوا بعض الأعمال الضئيلة بتأثير من مصر والإغريق وروما والعالم المسيحي. وفي العصور الحديثة، وبخاصة منذ تحريرهم على يد نابوليون واندماجهم في الحضارة الغربية، نجدهم يتخلّون عن موقفهم الساميّ الأول من أجل الدخول في المذهب الطبيعي الغربي.

إن التوحيد لا يعارض الإبداع الفني، أو التمتّع بالجمال. بل إنه على النقيض من ذلك يبارك الجميل ويشجّعه. والتوحيد لا يرى الجمال المطلق إلا في الله وفي إرادته وكلماته المنزلة. لذا كان التوحيد يميل إلى إيجاد فن جديد يناسب نظرته. وبدءاً من القول (أن لا إله إلا الله)، يعتقد الفنان المسلم بأن لا شيء في الطبيعة يمكن أن يمثّل الله أو يعبّر عنه. وعن طريق اتخاذ أسلوب التحوير، أبعَدَ الفنان المسلم كل شيء عن الطبيعة جهد إمكانه، وهو بهذا الأسلوب قد أبعد شيء الطبيعة عن الطبيعة إلى درجة يصعب معها تمييزه. وقد غدا أسلوب التحوير بيد الفنان المسلم أداة نفي يقول بها "لا" لكل شيء طبيعي، بل للخليقة نفسها. وبإنكاره المطلق لطبيعة الأشياء، كان المسلم يعبّر بشكل منظور عن الحُكْم بصيغة النفي (أن لا إله إلا الله). وشهادة الفنان المسلم هذه تعادل في الحقيقة إنكار التسامي في الطبيعة.

---

(١) ينظر: إسماعيل الفاروقي "حول طبيعة العمل الفني الديني" في ورقة:
- I.R. al-Faruqi, "On the Nature of the Religious Work of Art", Islam and the Modern Age, 1 (1970), pp. 68-81.

ولم يتوقف الفنان المسلم عند ذلك الحد. فقد تحقّق إنجازه الإبداعي عندما تبيّن له أن التعبير عن الله بشكل من أشكال الطبيعة هو أمر يختلف عن التعبير عن استحالة التعبير عن الخالق بمثل ذلك الشكل. إن الإدراك بأن الله –جلّ جلاله في علاه– لا يمكن التعبير عنه بَصريّاً؛ إذ هو أعلى هدف جمالي ممكن أمام الإنسان. الله هو الكامل المطلق والأسمى، والقول بعدم إمكان تمثيله بأي شيء في الخليقة هو الاعتقاد جِدّياً بكماله وسموّه. ورؤية الله في خيال المرء في صورة لا تشبه أي شيء في الخليقة هي رؤيته "جميلاً – لا يشبه أي شيء جميل آخر". وعدم إمكان التعبير عن الله هي صفة إلهية، تفيد الأبدية والكمال المطلق أو اللاتشكّلية واللامحدودية. والأبدي واللامتناهي هو بكل معنى من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه.

وتبعاً لهذا المسار في التفكير الإسلامي، ابتكر الفنان المسلم فن التزيين وحوّله إلى "الزخرفة العربية" أو التوريق المتشابك، وهو تشكيل لا يطوّر بُعداً واحداً، بل يمتد في جميع الاتجاهات إلى ما لا نهاية. وهذه الزخرفة العربية تحوّل الشيء الطبيعي الذي تنقشه، سواء كان قماشاً أو معدناً أو زهريّة أو جداراً أو سقفاً أو عموداً أو نافذة أو صفحة كتاب. إلى نسق خفيف، شفافٍ وطافٍ يمتد بلا حدود في جميع الاتجاهات. وشيء الطبيعة في هذا الفن لا يبقى هو نفسه، بل يغدو "متحوّل الجوهر" ويصبح مجال رؤية وحسب. ومن الناحية الجمالية غدا شيء الطبيعة في إطار الزخرفة العربية نافذةً على اللامحدود. ورؤية ذلك على أنه يوحي بالأبدية واللاتناهي هو

إدراكُ واحدٍ من معاني التسامي وهو المعنى الوحيد -مع أنه بصيغة النفي- الذي يُسبَغ على التمثيل الحسّي والحدس.

وفي هذا تفسير لأتصاف أغلب الأعمال الفنية التي أنتجها المسلمون بالتجريد. وحتى عند استعمال أشكال النبات والحيوان والبشر كان الفنان يتبع أسلوباً يظهره كمن يُنكر كونها أشياء مخلوقة، ويُنكر أنْ يَكمُن فيها أي جوهر خارق للطبيعة. وفي هذا المسعى كان الفنان المسلم يتلقى العون من تراثه اللغوي والأدبي. للغرض نفسه، طوّر هذا الفنان الخط العربي ليجعل منه زخرفة عربية لا حدود لها، تمتد بشكل غير متبدّل في أي اتجاه يريده الخطّاط. وينطبق القول نفسه على المهندس المعماري المسلم حيث تكون جبهة البناء عنده زخرفة عربية. ومثلها المسقط الرأسي وخط الأفق ومخطط الأرضية. والتوحيد هو العامل المشترك الأوحد بين جميع الفنانين المؤمنين بنظرة الإسلام للعالَم والكون، مهما كانوا متباعدين جغرافياً وعرقياً.[١]

---

(١) لمزيد من المعلومات حول علاقة التوحيد بالفنون الأخرى يُنظر:

- الفاروقي، إسماعيل؛ الفاروقي، لويس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**، الرياض: مكتبة العبيكان، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٨، الفصول ١٩-٢٣.

- Lois Lamya' al-Faruqi, Aesthetic Experience and the Islamic Arts (Istanbul: Hijrah Centenary Committee, 1984).

الخبرة الجمالية والفنون الإسلامية

الرؤية الإسلامية للتنمية
في ضوء مقاصد الشريعة
محمد عمر شابرا
ترجمة
محمود أحمد مهدي

الرؤية الإسلامية للتنمية في ضوء مقاصد الشريعة

تردد ذكر مقاصد الشريعة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، واستدل عليها من هذين المصدرين عدد من كبار العلماء قديماً وحديثاً. وتعالج دراسة هذه المقاصد الغاية من الشريعة التي أقر معظم العلماء أنها تهدف في النهاية إلى تحقيق مصالح البشر وحمايتهم من كل ما يسبب لهم الضرر أو الأذى. وفي هذه الدراسة يشرح الدكتور شابرا الرؤية الإسلامية للتنمية وعلاقتها بمقاصد الشريعة، مؤكداً أن الإسلام قد شدد على كافة مكونات السعادة البشرية، بما فيها حماية النفس والعقيدة والعقل والرخاء والثروة، وذلك من أجل ازدهار المجتمع ورفاهيته. وبالنسبة للعالم الإسلامي يؤكد الدكتور شابرا أن التركيز على النمو الاقتصادي وحده سوف يؤدي على المدى القصير إلى ارتفاع نسبي في معدلات النمو، ولكنه سيؤدي على المدى البعيد الى ارتفاع نسبة عدم المساواة، وإلى التفكك العائلي، وجنوح الأحداث، وانتشار الجريمة، وإلى تفاقم الاضطرابات الاجتماعية وانتشارها.

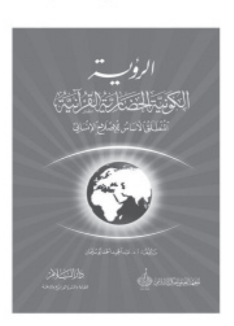


الفنون الإسلامية

إنَّ التعامل مع أيِّ جانب من جوانب الحضارة الإسلامية يؤكّد لنا أنَّ العامل الأكبر في وجودها والقاعدة الأساس في إبداعاتها هو القرآن الكريم. فالثقافة الإسلامية في الحقيقة هي ثقافة قرآنية؛ فمفاهيمها، وتكويناتها، وأهدافها، وأساليب إنجازها... ما لها أن تكون إلا بالاستمداد من الوحي الإلهي المنزَّل على النبي ﷺ. فبدون هذا الوحي، ما كان يمكن أن يكون ثمَّة دين إسلامي، ولا فلسفة إسلامية، ولا شريعة إسلامية، ولا مجتمع إسلامي، ولا مؤسسة إسلامية.

وكما أنَّ هذه الجوانب من الثقافة الإسلامية يُنظر إليها بحقٍّ على أنَّها ثقافة قرآنية في أساسها ودافعها وغايتها، فكذلك ينبغي أن يُنظر إلى الفنون في الحضارة الإسلامية بوصفها تعبيراً جمالياً مماثلاً في أساسه وتجليّاته.

أجل! إنَّ الفنون الإسلامية هي في الحقيقة فنون قرآنية. فكيف إذن يمكن النظر إلى الفنون الإسلامية على أنها تعبيرات قرآنية في: اللون، والخط، والحركة والشكل، والصوت؟



مختصر الرؤية الكونية

يمثل هذا الكتاب مراجعة فكرية عميقة شاملة لقضية «رؤية الأمة الإسلامية الكونية»، وتتبع مسارها في التاريخ، بما يفسر سبباً من أهم أسباب سالف رقي الأمة الإسلامية، كما يكشف عن وجوه التشوه التي أصابت رؤيتها الكونية الحضارية، والمخاطر التي تواجهها اليوم بسببها، وهو بذلك كتاب يسهم في تجلية وجه «الرؤية الكونية الحضارية القرآنية»، وكيفية إدراكها واستعادتها في عالم اليوم بما يمكِّن الإنسان المسلم، والأمة المسلمة، من استعادة سالف دافعيتها الإيجابية، وسالف قدراتها الحضارية الإعمارية الخيِّرة، استنقاذاً للأمة الإسلامية، واستنقاذاً لمستقبل الحضارة والإنسانية، بإذن الله.



حد الردة

مستل من كتاب الإصلاح الإسلامي المعاصر الذي قدم الكاتب فيه قراءة منهجية اجتماعية لخمس قضايا مهمة من قضايا الخطاب الإسلامي المعاصر. وكانت القضية الثانية التي يقع ضمنها موضوع هذا الكراس هي قضية نظام العقوبات الإسلامي باعتباره من ثوابت الشريعة، حيث وضَّح الكاتب فيه أن هذا النظام وثوابته لا مجال فيها للتشدد والتهديد والوعيد، بل هو نظام متكامل مرن يزن كل أمر بميزان العدل والرحمة وقصد تحقيق أمن المجتمع، وكيف يفرق الإسلام بين جرائم أخطاء الطبع ونزوات النفوس وبين الدماء والأموال بما يحقق الأمن الاجتماعي بأدنى قدر مناسب من العقوبة، وكيف أن ما يدعى بالحدود هو في الحقيقة سقف العقوبة، حيث الصفح والعفو مرغوب ومطلوب.

يطرح الجزء الخاص بالردة الذي يعاد نشره في هذا الكراس نظرة جديدة موثقة للموضوع، تستند إلى عدم الخلط بين أبعاد العلاقات العقدية والقانونية، وإدراك العلل بما يحقق المقاصد.